«نوّار نيسان»: تعليم على وقع هدير البحر

عفاف الكفارنة

وقفت يوماً ما أمام طالباتي، وقلت لهن «هل أنتن مستعدات لقيادة مهرجان نوار نيسان؟»، فتعالت الأصوات بالأسئلة: عن ماذا يتحدث المهرجان؟ متى سيحدث؟ ما هو دورنا؟ كيف سنقود؟

قمت بمناقشتهن حول ثيمة المهرجان لهذا العام، ما أشعرهن بالسعادة والقدرة على القيادة، لأن البحر في اعتقادي جزء لا يتجزأ من حياة كل مواطن في قطاع غزة، فهو المتنفس الوحيد الذي يتوجه إليه الناس للاستمتاع، فبدأنا بتدوين الأفكار المطروحة من الطالبات على السبورة، وعرضت العديد من الطالبات أدوارهن التي هن على استعداد للقيام بها.

فمثلاً، طلبت طالبات عدة من عائلاتهن الخروج إلى البحر لإحضار ما يستطعن من أصداف، وقد أخبرتني إحدى الطالبات أنها جندت كل الأسرة للبحث عن أنواع مميزة منها للمشاركة بها في المهرجان، ما عزز روح التعاون بين أفراد الأسرة الواحدة، حيث قام الأخوة والأم والأب في البحث عن تلك الأصداف لمساعدة أحد أفراد الأسرة، وكأنهم جميعاً شخص واحد.

قامت أخريات بكتابة قصص عن البحر وتعزيزها بالرسومات، وذلك بمساعدة الأهل والحديث عن ذكرياتهم على شاطئ البحر، ما خلق مساحة لسماع الآخرين ومشاركتهم الذكريات السعيدة.

أما المجموعة الأكبر، فقد عرضت الموضوع على معلمة التربية الفنية في المدرسة، وطلبن منها أن تعلمهن بعض المهارات لرسم البحر، وبالفعل قامت المعلمة بتحويل مسارها وخططها لتبدأ بتعليم الطالبات كيفية رسم ميناء غزة، وقد فاجأني وأسعدني دخولي للعديد من الفصول، وإذ بالطالبات ترينني لوحاتهن الجميلة عن ميناء غزة، ما عمل على الربط بين الطالبات وبين مكان جميل تتميز به غزة ونعتز به جداً.

وقد تتابع العمل والتحضيرات حتى سمعت الطالبات في ورشة «تحضير إكسسوارات بَحْرية»، فبدأ التنافس بينهن في تزيين الأصداف وإحضارها جاهزة، وما بين عمل حلى مختلفة بإدخال خامات أخرى كالرمل والصوف وغيرهما، وهنا ظهر إبداع الطالبات واكتسابهن روحاً فنية جمالية إضافية.

ومن ضمن التحضيرات، كانت هناك ورشة تحضير ألعاب تليماتش العلوم، وقد ساهمت الطالبات في إعداد وتصميم عدد من الرسومات لكائنات بحرية وتلوينها إعداداً لاستخدامها يوم المهرجان.

وقد أبدت الطالبات قمة التفاعل والسعادة أثناء العمل، وليس ذلك فحسب، بل تعلمن كيفية استعمال بعض الأدوات كلاصق السيلكون وغيرها دون خوف. وكذلك تعلمت الطالبات كيفية حساب أبعاد الأشكال الهندسية كجزء من إعداد المجسمات المراد استخدامها في فعاليات المهرجان.

وبعد الانتهاء من التجهيزات، جاء وقت العرض الحقيقي، وقد كان على شاطئ البحر في ميناء غزة، فبدأنا بتوزيع الدعوات على الطالبات، وكم كنت متفاجئة عندما أرى الطالبات «يتنازعن» للحصول عليها رغبةً في الحضور والمشاركة وكأنه حدثٌ نوعيٌ.

قد يكون ذلك لعدم الشعور بأن ذلك الحدث مألوف، فقلما تقوم المدرسة بمثل هذه الأنشطة، وقد يكون لمجرد الرغبة في الخروج من المدرسة، وكأنها رحلة للابتعاد عن نمطية الحياة وروتينها الممل، فمن المعروف نزعة الإنسان نحو ما هو جديد وغير تقليدي.

ولا أنسى تلك الطالبة التي استمرت واقفةً أمام باب الباص الذى ينقلنا وهى «تترجى» لعلى أوافق على ذهابها معنا على الرغم من عدم موافقة أهلها، وما زالت كلماتها ترن في أذني: «أمانة يا آنطي خديني، نفسى أشارك بالمهرجان».

بعدها ... جاء يوم المهرجان الأول، وقد كان حافلاً بالأنشطة، وحضرت مجموعة كبيرة من الطالبات وشاركن في العديد من الأنشطة، وبخاصة ما كان فيها قص وتلوين ورسم، وكأنه يحاكي رغبة داخلية لديهن للحرية وعدم التقيد بحدود، فعلى سبيل المثال شارك في رسم الجدارية التي كنت أراقب العمل فيها جميع الأعمار والفئات من رجال ونساء وأطفال وشباب، فقاموا باستخدام خامات متنوعة كالرمل، والصدف، والألوان المائية، ... وغيرها للحصول في النهاية على تحفة فنية معبرة عن الحياة البحرية.

وقد استوقفني ما كتبه أحد الأطفال عليها وهو «فلسطين»، وكأنه لم يفصل غزة عن الضفة، بل جمعهما على اللوحة وقام بتزيينها وتلوينها لتعبر عن حبه لوطنه.

ومما كان مألوفاً هو التقاط الصور مع تلك الجدارية كتذكار لما قاموا برسمه، وكأنه إنجاز وطني. وبرأيي أن ذلك يعود إلى رغبة الفرد في استذكار اللحظات الجميلة، فلا نرى شخصاً يلتقط صوراً في الأوضاع الحزينة، لذا برأيي أن ذلك الحدث كان ممتعاً، ويدعو إلى الفرح، لذا رغب الجميع في تذكره ولو بصورة.

أما عن اليوم الثاني، فقد كان الأروع، فعلى الرغم من حرارة الشمس التي أحرقت وجوهنا، فإن عيوننا كانت ترقص فرحاً، وقلوبنا تشعر بروعة الإنجاز، وكأن لسان حالنا يقول «نجحنا»، فقد حضر عدد كبير من الأطفال مع عائلاتهم، وقاموا بمشاركتهم في الفعاليات كافة، وكأنه «يوم العائلة» الذي يسعد فيه جميع أفرادها.

فكثير من الدول كشمال أفريقيا وكندا وولايات متعددة في أمريكا وغيرها، تخصص يوماً لتجميع أفراد العائلة الذين قلما يجتمعون، بل ويعتبرونه عيداً فيما يسمى (Family Day).

وكم كانت تلك الابتسامة التي ارتسمت على وجوه الأطفال والأمهات وهم يشعرون بأن الفرصة أتيحت لهم لفعل ما هو غريب، أو ما هم محرومون منه، فقاموا بالرسم، والقص، والتلوين، والجري واللعب بالرمل وتلوينه، والعديد العديد من الأنشطة المثيرة لاهتماماتهم.

وأخيراً، كانت تجربة المشاركة في نوار نيسان فعلاً تجربة غنية جداً، أضافت لي خبرة ومعرفة بأولئك الأطفال واحتياجاتهم ورغباتهم، وكم أحتاج إلى تكرار تلك التجربة لأعيد النظر في كل سلوكات الأطفال وما طرأ عليها من تغير بعد المشاركة بالمهرجان.

مدرسة بنات غزة الاعدادية (ب)

جانب من مشاركة الأطفال في فعاليات مهرجان نوار نيسان، غزة 2016.